وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

الحمد لله الذي تفرد بكل كمال، بيده الخير كله فله الحمد على كل حال، أمر ببر الوالدين ووعد على ذلك بجزيل النوال، وحذر من عقوق الوالدين وجعل عاقبة من عق والديه في سفال، أحمده -تعالى- وأشكره، أحمده حمدا وشكرا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه، واتبع سنته إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا.

جُبِلَتْ النفوس على حُبِّ من أحسن إليها، وتعلقتِ القلوب بمن كان له فضل عليها، وليس أعظم إحساناً وفضلاً بعد الله -تعالى- من الوالدين؛ فلله نعمة الخلق والإيجاد، ولهما بإذنه نعمة التربية والإيلاد.

فالأم حملتنا في أحشائها تسعة أشْهُر، وَهناً على وهن، حملتنا كُرهاً، ووضعتنا كُرهاً، وعند وضعنا رأت الموت بعينيها، ثم لما أبصرتنا نَسِيتِ الآلام وعلقت الآمال.. ثم شغلت بخدمتنا ليلها ونهارها، تحيطنا وترعانا، أما الأب فنحن له مجبنة مبخلة، يَكِدُّ ويسعى، ويتحمل الأذى، في سبيل أن لا نجوع ولا نعرى.

ولعظم حق الوالدين قرن الله -تعالى- حقهما بحقه فقال -تعالى-: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [النساء: 36].

ونتدبر كيف قرن الله تعالى في الآيات بين الأمر بعبادته -جل وعلا- والنهي عن الشرك به -عزّ وجل-، وبين الأمر بالإحسان للوالدين، وقال -جلَّ في علاه-: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) [البقرة:83].

وسُئِل ابن عباس عن قوله تعالى: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، ما الإحسان، فقال: "لا تنفض ثوبك فيصيبهما الغبار".

وكان من صفات أنبياء عليهم السلام الله التي مدحهم الله بها بر الوالدين؛ كما قال عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: 14]، وقال سبحانه وتعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 32].

أحب الأعمال إلى الله -تعالى-، بعد الصلاة بر الوالدين، وهو أعظم أجرا، وأرفع قدرا، وأحب إلى الله -تعالى- من الجهاد في سبيل الله مع عظيم شأن الجهاد ومكانته في دين الله، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: سألت النّبيّ -ﷺ-: أيّ العمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ؟ قال: الصّلاة على وقتها. قال: ثمّ أيّ؟ قال: برّ الوالدين. قال: ثمّ

أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله " فبر الوالدين أحب الأعمال إلى الله بعد الصلاة، وهو مقدم على الجهاد في سبيل الله.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– قال: "أَقْبَلَ رَجُلٌ إلى نَبِيِّ اللهِ –ﷺ–فَقالَ: أُبَايِعُكَ علَى الهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللهِ، قالَ: فَهلْ مِن وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قالَ: فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: فَارْجِعْ إلى وَالِدَيْكَ فأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا" صحيح مسلم.

نعم، إن من يبتغي الأجر العظيم، والثواب الجزيل من الله، فعليه أن يحسن صحبة والديه فهذا هو باب الأجر، وباب الثواب الجزيل من الرب –جل جلاله–.

وجاء رجلٌ إلى النبي –ﷺ– يستأذنه في الجهاد، فقال: "أَحيٌّ والدك؟"، قال: نعم قال: "ففيهما فجاهد"؛ متفق عليه.

ففي هذا الحديث جعل النبي –ﷺ– بِرَّ الوالدين من الجهاد، وأمر هذا الرجل بالرجوع إليهما، وترك جهاد التطوُّع، وعَنْ أَبي سَعِيدٍ الخدرِي رضي الله عنه أَن رَجلا هَاجَرَ إِلى رسولِ الله –ﷺ– من اليَمَنِ فقال: «هَل لك أَحَدٌ بِاليمن؟»، قال: أَبَوَايَ، قال: «أَذِنَا لك؟» قال: «لا»، قال: «ارْجِعْ إليهما فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فإن أَذِنَا لك فجاهد، وإلا فَبِرَّهُمَا"؛ أخرجه أحمد وأبو داود وصححه ابن حِبَّان.

وفي هذا الحديث وجوب استئذان الوالدين حتى في الخروج للجهاد في سبيل الله، فكيف بغيره!

وفي سنن النسائي أَنَّ جَاهِمَةَ السُّلمي جاء إلى النبي –ﷺ–، فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: "هل لك من أم؟!"، قال: نعم، فقال: "الزمها؛ فإن الجنة تحت رجليها".

عن أبي الدرداء –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –ﷺ– يقول: " – الوالِدُ أوسطُ أبوابِ الجنَّةِ، فإنَّ شئتَ فأضِع ذلك البابَ أو احفَظْه "(سنن الترمذي) فبر الوالدين من أسباب دخول الجنة.

ولما ماتت أُمُّ إياس بنِ معاوية بكى فقيل له: ما يبكيك؟! قال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة، وأغلق أحدهما.

وقد أكد الله –تعالى– حق الوالدين في عدة مواضع من كتابه الكريم، وأمر بالإحسان إليهما، والبر بهما، بل إن الله –تعالى– قرن حق الوالدين بحقه سبحانه وتعالى فقال: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[الإسراء: 23–24]

وأَمَر ربك –أيها الإنسان– وألزم وأوجب أن يفرد سبحانه وتعالى وحده بالعبادة، وأمر بالإحسان إلى الأب والأم، وبخاصة حالةُ الشيخوخة، فلا تضجر ولا تستثقل شيئًا تراه من أحدهما

أو منهما، ولا تسمعهما قولا سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، ولكن ارفق بهما، وقل لهما –دائما– قولا لينًا لطيفًا. التفسير الميسر

أمر الله –تعالى– بالإحسان إلى الوالدين، وذلك الإحسان يكون بثلاثة أمور: يكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالمال.

أما الإحسان بالقول: فبأن يخاطبهما الولد باللين واللطف مستصحبا كل لفظ طيب يدل على اللين والتكريم.

وأما الإحسان بالفعل: فبأن يخدمهما الولد ببدنه ما استطاع من قضاء الحوائج، والمساعدة على شؤونهما، وتيسير أمورهما، وطاعتهما ما لم يأمرا بمعصية.

وأما الإحسان بالمال: فبأن يبذل الولد من ماله كل ما يحتاجون إليه، طيبة به نفسه، منشرح به صدره، غير متبع له بمنة ولا أذى بل يرى أن المنة لهما في قبوله والانتفاع به.

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ) أي لا تسمعهما قولا سيئا، ولا تؤذهما بأي أذى حتى بكلمة أف، بالتأفف التي هي أدنى مراتب القول السيء.

وقال العلماء: لو ان هناك كلمة أقل شأنا من أفٍ لنهى الله تعالى عنها.

وإنما خص الله –تعالى– حالة الكبر: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ) مع أن ما أوصى الله –تعالى– به مطلوب مع الوالدين حتى في غير حالة الكبر، لكن الله –تعالى– إنما خص هذه الحالة لأن الوالدين في حال الكبر تضيق أنفسهما، وتكثر حوائجهما ومطالبهما، فربما تبرم الولد من ذلك، ولهذا خص الله –تعالى– هذه الحالة: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أي لا يصدر منك إليهما أي فعل قبيح.

قال مجاهد –رحمه الله–: "إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان فيه ويخريان فلا تتقززهما ولا تقل أفّ، بل أمط الخراء والبول عنهما كما أماطاه عنك صغيراً".

ثم لما نهى عن القول القبيح والفعل القبيح، أمر بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: (وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) أي: لينا طيبا، حسنا، بتأدب، وتوقير، واحترام (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) أي ادعوا لهما بالرحمة في حياتهما وبعد وفاتهما فإن ذلك داخل في برهما.

ويقول ربنا –عز وجل–: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)[لقمان: 14–15] فأمر الله –تعالى– بصحبة الوالدين بالمعروف في الدنيا، حتى وإن كان يأمران الولد بأعظم الذنوب، وبأعظم المعاصي وهو الشرك بالله –تعالى–، حتى وإن كانا كافرين، ويأمران الولد بأعظم ذنب عصي الله به وهو الشرك، ومع ذلك يقول الله –تعالى– (فَلَا تُطِعْهُمَا) أي فيما أمراك به، وفيما جاهداك عليه من الشرك ولكن

مع ذلك (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) فإذا كان الله –تعالى– أمر بصحبة الوالدين الكافرين اللذين يجاهدان ولدهما على الشرك فكيف بالوالدين المسلمين؟

فالبر بالوالدين، والإحسان إليهما، وإكرامهما، واجب على كلِّ ابن لهما، بل حتى إن كانا يأمران ولدهما بالمعصية وبالكفر أو الشرك، ويجاهدانه على ذلك، فإنه لا يطيعهما في المعصية والكفر والشرك، لأنه "لا طاعة لأحد في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف"، ومع ذلك عليه أن يحسن إليهما ويكرمهما، وأن يرحمهما ويرأف بهما، ويحنو عليهما، ويصلهما مع النصح لهما، ودعوتهما للإسلام، وأن يدعو لهما بالهداية إلى طريق الحق والنور، وأن يَمُنَّ الله عليهما برحمته فيسلما.

وفي الصحيحين من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ –رضي الله عنهما–، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ –صلى الله عليه وسلم–، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ: أَفَأَصِلُ أُمِّي؟! قَالَ: "نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ".

فانظروا إلى عظيم منزلة البر في دين الله –سبحانه–، وعظيم أجره وثوابه، وإذا كان قد رتب على البر الأجر العظيم، والثواب الجزيل في الآخرة، فإن للبر جزاء معجلا في الدنيا، وهو تفريج الكربات، فقد جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر –رضي الله عنهما– في قصة الثلاثة نفر الذين أواهما المبيت إلى غار فدخلوه، فانطبقت عليهم الصخرة، فسدته عليهم، فتوسلوا إلى الله –تعالى– بصالح أعمالهم أن يفرج الله عنهم، فقال أحدهم: اللهم إنه قد كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبط قبلهما أهلا ولا مالا، فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرى عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرجنا عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت قليلا، وتوسل الآخر بعفته عن الزنا مع تهيؤ أسبابه، وتوسل الثالث بأمانته فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون.

⇦فدل هذا على أن بر الوالدين من أسباب تفريج الكربات.

ومن عظم حقهما أن رضا الله –تعالى– مقيَّد برضاهما؛ روى البخاري في الأدب المفرد أنه –ﷺ– قال:" رِضى اللَّهِ في رِضى الوالِدَينِ، وسَخَطُ اللَّهِ في سَخَطِ الوالدينِ".

وإن بر الوالدين هو أعظم ما يكون من صلة الرحم، فقد قال النبي –ﷺ–: " مَن سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ. "(متفق عليه).

وبر الوالدين يزيد في العمر ويوسّع في الرزق، والبار بوالديه مستجاب الدعوة عند الله تعالى، ومن برَّ والديه كفَّر الله عنه ذنوبه، وبرَّه أولاده.

عَن سعيد بن الْمسيب، قَالَ: "الْبَار لَا يَمُوت ميتَة سوء".

ومما يدل على عظيم حق الوالدين: أن لهما أن يأخذا من أموال أولادهما ما شاءا بشرط أن لا يضر ذلك بالولد، وأن لا يأخذه ليعطيه ولدا آخر، جاء رجل إلى النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله إن أبي قد أخذ مالي؟ فسأل النبي -ﷺ- الأب، وكان هذا الأب فقيرا، فقال: يا رسول الله هل أنفقه إلا على عماته، أو خالاته، أو على نفسي؟ فقال النبي -ﷺ-: "دعنا من هذا، وأخبرنا عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك" قال: يا رسول الله والله ما يزال الله يزيدنا بك يقينا، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي، فقال له النبي -ﷺ-: "قل وأنا أسمع" قال: قلت -أي- مخاطبا لولده:

غَذَوتُكَ مولوداً وعِلتُكَ يافعاً *** تُعلُّ بما أُدني إليكَ وتَنهلُ

إذا ليلةُ ضاقت بك السقمِ لم أبِتْ *** لسُقمِكَ إلاّ ساهراً أتململُ

كأنّي أنا المطروقُ دونكَ بالذي *** طُرقتَ به دوني فعينيَ تَهملُ

تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عليكَ وإنها *** لتَعلمُ أن الموتَ حتمٌ مؤجّلُ

فلمّا بلغتَ السِنَّ والغايةَ التي إليها *** مدى ما كُنتُ فيكَ أُؤملُ

جَعَلتَ جزائي غِلظَةً وفظاظةً *** كأنّكَ أنتَ المُنعِمُ المتَفضلُ

فليتَكَ إذ لم تَرْعَ حقَّ أبوَّتي *** فَعلتَ كما الجارُ المجاور يفعلُ

فقال النبي -ﷺ- لهذا الابن: "أنت ومالك لأبيك".

ومن صور بر الوالدين:

1- أن يكثر الولد الجلوس معهما، وإيناسهما، ولا يكتفي فقط بتوفير الطعام والشراب، ولا يلتهي بوظيفة تبعده عن والديه، وإنما يبرهما، ويجالسهما.

2- أن يؤثر الولد رضا الوالدين على رضا نفسه وزوجه وأولاده والناس أجمعين؛ نحر أعرابي جزورًا، وقال لامرأته: "أطعمي أمي منه، فقالت: أيها أطعمها. فقال: الورك، قالت: ظوهرت بشحمة وبطنت بلحمة، لا لعمر الله، قال: فاقطعي لها الكتف، قالت: الحاملة للشحم من كل مكان؟ لا لعمر الله، فقال: فما تقطعين لها؟ قالت: اللَّحْي ظهّرت بجلدة وبطنّت بعظم، قال: فتزوديها إلى أهلك"، وخلَّى سبيلها.

3-ومن البر أن يتلمس حاجاتهما، ويبادر إلى تقديم ما يتوقع أنهما يريدانه قبل أن يطلباه.

قالت حفصة أم هذيل -رحمهما الله-: "كان هذيل يبعث إليَّ بحلبة الغداة من أحسن النوق فأقول: يا بني تعلم أني أصوم ولا أشرب نهاراً، فيقول: أطيب اللبن ما بات في الضرع، فلا أحب أن أُوثر عليك أحداً، فابعثي به إلى من أحببت".

4-ومن البر: حسن الأدب معهما ولين العبارة ولطف الإشارة.

قال أنس بن النضر: "استقت أم ابن مسعود ماء في بعض الليالي فذهب فجاءها بشربة فوجدها نائمة، فوقف بالشربة عند رأسها حتى أصبح، مخافة أن تنتبه تريد الماء وهو نائم".

📃وكان ابن عمر –رضي الله عنهما– يطوف فلقيه رجل من أهل اليمن يحمل عجوزاً على ظهره فقال: "يا ابن عمر! هذه أمي أحملها منذ كذا سنة، وربما قضت حاجتها على ظهري، هل أوفيت حقها؟ قال: لا، ولا زفرة من زفراتها، هي كانت تفعل بك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تفعله وتتمنى فراقها".

5–ومن برهما: احتمال أذاهما المعنوي والحسي وعدم الضجر منه، فيتحمل الولد سوء خلق والديه وضجرهما وصراخهما كما يتحمل تنظيفهما من البول والمخاط وغير ذلك.

6–ومن برهما أن يطيعهما في كل ما يأمرانه وينهيانه عنه، سواء وافق رغبته أولم يوافقها ما لم يأمراه بمعصية أو بأمر فيه ضرر ظاهر عليه.

قال رسول الله –ﷺ–: "ولا تَعُقَّنَّ والِدَيْكَ، وإنْ أمرَاكَ أنْ تَخْرُجَ من أهلِكَ ومالِكَ" (صحيح الترغيب).

6–ومن أعظم البر: برّهما بعد موتهما، فبرُّ الدين لا ينقطع بموتهما – ولله الحمد – بل هو متصلٌ بعد الموت، وذلك بالدعاء لهما، والصدقة عنهما، وصلة رحمهما، والإحسانِ إلى صديقهما، روى البخاري في الأدب المفرد عن أبي أسيد –رضي الله عنه– قال: "جاء رجل إلى النبي –ﷺ– فقال: "يا رسول الله بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتهما؟ قال: نعم؛ إنفاذ عهدهما، والصلاة عليهما – أي: الدعاء لهما –، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما".

–ﷺ– "إنَّ الرَّجلَ لتُرفَعُ درجتُه في الجنةِ فيقولُ: أنَّى هذا؟ فيقالُ: باستغفارِ ولدِك لكَ" صحيح ابن ماجه

📝"باستِغْفارِ ولَدِك لَك"، أي: بسبَبِ استِغفارِ ولَدِك لك؛ لأنَّ الولَدَ مِن كَسْبِ أبيهِ؛ فيَكونُ كالصَّدَقةِ الجاريَةِ". الدرر السنية

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله –ﷺ– قال: "إذا مات الإنسان، انقطَع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا مِن صدقة جارية، أو علمٍ يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له"؛ أخرجه مسلم.

📝ولعلَّ اجتهادك في برهما بعد موتهما، يَمحو تقصيرك في حقهما حال حياتهما، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله –ﷺ–: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ أو أَحَدُهُمَا، وَإنه لهما لَعَاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما، ويستغفرُ لهما، حتى يَكْتُبَهُ اللهُ بَارًّا"؛ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

⇦فينبغي للمسلم أن يُكثر من الدعاء لوالديه، وأن يتصدق عنهما، ويصلَ أرحامهما، ويكرم أصحابهما.

❍اللهم ارحم والدينا كما ربَّونا صغارًا، وأعنَّا على برِّهم أحياءً وأمواتًا.

وإذا كان بر الوالدين بالمنزلة العظيمة التي سمعنا، فإن عقوق الوالدين من أكبر كبائر الذنوب، فقد جاء في الصحيحين عن أبي بكرة –رضي الله عنه– أن النبي –ﷺ– قال: " أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبائِرِ؟ قالوا: بَلَى يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: الإشْراكُ باللَّهِ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ. [وفي رواية]: وكانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فقالَ: ألَا وقَوْلُ الزُّورِ، فَما زالَ يُكَرِّرُها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. ".

فجعل النبي –ﷺ– العقوق من أكبر كبائر الذنوب.

وعقوق الوالدين له صور كثيرة منها:

1– إبكاؤهما أو تحزينهما بقولٍ أو فعلٍ أو رفعُ الصوت عليهما.

" جاء رجُلٌ إلى رسولِ اللهِ –ﷺ–، فقال: جِئْتُ أُبايِعُكَ على الهجرةِ، وتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يبكيانِ، فقال: ارجِعْ إليهما؛ فأَضْحِكْهما كما أبكَيْتَهما" (صحيح أبي داود).

2– ومن العقوق إدخال المنكرات لمنزلهما أو مزاولتها أمامهما كترك الصلاة عمداً، أو شرب الدخان، أو مشاهدة المحرمات.

قال بعض المفسرين في قوله –تعالى– (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) [الكهف: 80– 81]، معناه: خشينا أن يحملهما حبُّه على اتباعه في دينه.

3–ومن العقوق: البراءة منهما أو التخلي عنهما، ومن ذلك إخراجهما من البيت أو إلقاؤهما في دار العجزة والمساكين.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "لا تصحَب عاقًّا لوالديه، فإنه لن يبرَّك وقد عقَّ والديه".

4–ومن صور العقوق إهمالهما، فلا يلتفت إليهما إلاّ نادراً، لا يدري هل تغدَّت أمه أم لا. هل هي عطشانة فيسقيها أم مريضة فيداويها، بل يتركها عجوزاً ملقاة في زاوية من البيت لا يجد وقتاً يغمز فيه رجليها ويؤانسُها بحديثه.

قال بشر بن الحارث: "الولد بالقرب من أمه حتى تسمع نَفَسَه أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله –عز وجل–".

وقال محمد بن المنكدر: "بتُّ أغمز رجل أمي، وبات أخي عمر يصلي؛ فلا يسرني أن يبادلني أجر ليلتي بليلته".

وإن من الخطأ الذي يقع فيه بعض الشباب الغفلةَ عن والديه والانشغال عنهما، بدعوى طلب العلم أو حفظ القرآن، أو الدعوة إلى الله، وهذا من تقديم المستحب على الواجب، وارتكاب المحظور من أجل تحصيل المندوب.

قال هشام بن حسان: قلت للحسن: إني أتعلم القرآن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: "تعشَّ العشاء مع أمِّك تَقَرُّ به عينُها، فهو أحب إليَّ من حَجَّةٍ تحجُّها تطوعًا".

وعن جبير بن مطعم –رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– قال: " لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ" صحيح مسلم.

وعقوق الوالدين هو أعظم ما يكون من قطيعة الرحم. وأخبر النبي -ﷺ- بأن جزاء قطيعة الرحم معجل في الدنيا قبل الآخرة في الغالب، وعقوق الوالدين هو أعظم ما يكون من قطيعة الرحم، يقول -ﷺ-: " ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجِّل اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدّخر له في الآخرةِ مثل البغيِ وقطيعةِ الرحمِ " فقطيعة الرحم شؤمه عظيم، لا تجد إنسانا سعيدا في حياته، موفقا في أموره، ميسرة أموره عليه وهو عاق لوالديه، لا تجد هذا أبدا، إنما السعادة والتيسير والتوفيق مرتبطة ببر الوالدين، وبصلة الرحم، وهذه من سنن الله -تعالى- التي نراها واقعا في المجتمع.

إن وجود الوالدين على قيد الحياة له نعمة عظيمة من الله -تعالى- على الإنسان؛ لأن الوالدين إذا كانا موجودين بإمكانه أن يتدارك، وبإمكانه أن يبر بهما.

قد تجد في الإنسان من يظهر لك من حبه أكثر مما تظهر الأم والأب، ولكنه إنما يحبك لمصلحة، يحبك إما لمالك، أو لجاهك، أو صلاح حالك، أو غير ذلك، فإن ساءت الحال، أو قل المال، أعرض عنك.

أما الذي يحبك لذاتك، ويبقى على حبك مهما تبدلت الحال بك فهما أمك وأبوك....

وتأملوا فيما قصَّه الله -تعالى- لنا من حال يعقوب -عليه السلام- مع ابنه يوسف، وكيف تعلق به قلبه حتى عيّره بنوه، وقالوا: (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)، أي: لا تزال تذكره حتى يفسد جسمك وعقلك. قال الله: (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) [يوسف: 85- 86]، أي: مكظوم يردد حزنه في جوفه لا يستطيع إظهاره.

فتأملوا: في حالة نبي من الأنبياء ووجد هذا الوجد على ولده؛ فكيف بحال غيره من الآباء والأمهات.

الوالدنا لا نجد لهما مثيلا في الدنيا، فمن كان له أم، أو كان له أب فقد فتح له باب من أبواب الجنة، فمن الذي يمر بباب الجنة مفتوحا فلا يدخلها، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: " رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ " صحيح مسلم.

وإن مما يحسن التنبيه إليه: أن بعض الوالدين لا يعينان أولادهما على برهما، بل ربما تجد الابن أو البنت يسعا جاهدا لبر والديه ولكن والده بسوء خلقه، وجفوته يعيق ولده عن أن يقوم ببره، وكلما حاول الولد أن يبر بوالده أو والدته لم يتمكن بسبب جفوة هذا الأب أو الأم، فرحم الله والدا أعان أولاده على بره.

ثم الواجب على الولد تحمل ما قد يلقاه من والديه من سوء الخلق، ومن الجفوة، ونحو ذلك؛ لأننا بهذا البر إنما نرجو الأجر والثواب من الله -عز وجل-، وإذا سعا الولد جاهدا في بر والديه، ولم يتمكن أحيانا بسبب عوائق من الوالد، أو الوالدة، فإن الله -سبحانه وتعالى- قال بعد

ما أمر ببر الوالدين قال: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)[الإسراء: 25] فإذا علم الله من الإنسان رغبته الأكيدة في البر، لكن ذلك لم يتحقق على الوجه الذي يؤمله، بسبب من الوالد أو الوالدة، فإن هذه الآية فيها سلوة للأولاد من الأبناء والبنات (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا).

وأما من مات والده أو والدته فإنه لم ينقطع برهما، بل بقيت أمور يستطيع أن يبر بهما والديه ومن ذلك: الدعاء لهما فإنه من أعظم البر خاصة بعد وفاتهما، فقد أمر الله –تعالى– بذلك فقال: (رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

وكذلك أيضا: الصدقة عنهما، والعمرة والحج عنهما، إكرام صديقي الوالد أو الوالدة، إكرام صديق الأب، أو صديقة الأم بعد مماتهما، فهذا من أعظم البر بهما، لكن الدعاء هو الأعلى في أعمال البر، روى البخاري في الأدب المفرد عن أبي أسيد –رضي الله عنه– قال: "جاء رجل إلى النبي –ﷺ– فقال: "يا رسول الله بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتهما؟ قال: نعم؛ إنفاذ عهدهما، والصلاة عليهما – أي: الدعاء لهما –، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما".

عن عبد الله بن دينار: أن عبد الله بن عمر لقي رجلا من الأعراب فسلم عليه وقال: "ألست فلان بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه حمارا يركب عليه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال: ابن دينار، قلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب يرضون باليسير، قال ابن عمر: إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله –ﷺ– يقول: " إِنَّ مِن أَبَرِّ البِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ "أي بعد موته"، وإِنَّ أَبَاهُ كانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ".

فانظري كيف جعل النبي –ﷺ– جعل هذا من أبر البر، ولذلك من كان له أب أو أم وقد ماتا فعليه أن يسعا لإكرام أحبابهما، وإكرام صديقهما فإن هذا من أبر البر بهما، في الصحيحين عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: "ما غرت على أحد من نساء النبي –ﷺ–، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، لكني رأيت النبي –ﷺ– يكثر ذكرها، وربما أمر بذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها إلى صديقات خديجة، قالت عائشة: فقلت: كأن لم يكن لك في الدنيا إلا خديجة؟ فيقول: "إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد".

فانظري كيف كان النبي –ﷺ– أراد أن يصل زوجه خديجة بعد وفاتها بإكرام أحبابها، وصديقاتها في الدنيا، فهذا من أبواب البر، ومن أبواب: الصلة، أن يكرم الإنسان أحباب وأصدقاء والده أو والدته فهذا من البر، بل جعله النبي –ﷺ– من أبر البر.

والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثيرة، والسعيد من وُفِّق لبر والديه والإحسان إليهما، فإن في برِّهما خيري الدنيا والآخرة، والشقي من عقَّهما وخالَف أمرهما وأغضبهما، وسيندم لا محالة في الدنيا أو الآخرة.

إن برَّ الوالدين دَينٌ يجد البارُّ وفاءَه، وكما تدين تُدان، وإن من ثمراته العاجلة أن يجد الإنسانُ ذلك في أولاده، فَيَبَرُّه أولادُه، ويُحسنوا إليه كما برَّ والديه وأحسن إليهما، وهذا أمرٌ مشاهد، وإن لم يثبت بذلك حديث صحيح.

فبرُّ الوالدين ينبغي أَن يكون في أَجمل وأبهى حلله، فإنه بعضُ الوفاءِ لِفضلِهما: (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ) [الرحمن:60]، فإنه ليس من كريم الشيم أَن يعق الولد أبويه، فيقابل الحسنة بالسيئة، والنعم والفضل بالجحود والكفران، والعناية بالترك والإهمال، إن في هذا لَبَوَارًا وخسرانًا في الدنيا، وغضبًا من الله وحرمانًا من رضوانه في الآخرة.

إن والدينا هما سبب وجودنا، وأرحم الناس بنا، وأقرب الناس إلينا، يشقيان في هذه الحياة لنسعد، ويتعبان لنستريح، ويجوعان لنشبع، يُعطيانا من غير مَنٍّ ولا أذًى.

نسأل الله جل جلاله أن يغفر لنا خطأنا وزللنا، وأن يعيننا على بر والدينا، اللهمّ اغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا اللهم من كان منهم حياً فمتعه بالصحة والعافية على طاعتك حتى يلقاك، ومن كان منهم ميتاً فضاعف له حسناته وتجاوز عن سيئاته وأجمعنا بهم في جنتك يا رب العالمين.

المراجع:

❶ بر الوالدين سعد بن تركي الخثلان.

❷بر الوالدين: محمد بن عبد الرحمن العريفي.

❸ بر الوالدين (خطبة)أ. د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي.